السخرية تصالح إنساني مع الوجود

السخرية موقف يقفه الأديب من الوجود ، وهو لا يقف هذا الموقف إلاَّ بعد أن لا يجد جدوى من الرفض المطلق للوجود ، أو القبول الخاضع له ، فالرفض معناه عدم الرضى ، وهذا يعطي انطباعا بأن الوجود فاسد ، ومفعم بالشر ولا يستحق أن يعاش ، فهو رفض سلبي . أما القبول الخاضع أو المستكين ، فهو تسليم ساذج ومعناه الرضى بكل ما في الوجود من فساد وشر ونقص . ويريد الأديب أن يجمع الموقفين – الرفض والقبول – في موقف واحد ، فلا يريد أن يرفض ، ولا يريد أن يقبل ، وخلاصة المزج بين هذين الموقفين هو موقف السخرية ، لأنها تتضمن القبول والرفض في نفس الوقت ، وكما يقول الدكتور (محمد حامد الهوال) :

(إن السخرية نوع من النقد أو هي في حقيقتها نزعة نقدية) . فحينما أنقد شيئا ، فإن محاولتي تلك تتضمن قبولا ضمنيا له ، وعملية النقد ذاتها تتضمن رفضا للصورة التي عليها الشيء المنقود .

وهي – السخرية – عملية إصلاح أو تقويم يقوم بها الإنسان الساخر ، أو هي هجوم يوجهه افنسان ضد الوجود لتحطيم أصنام القبح ، وإضفاء مسحة من سمات الجمال ، يقول الدكتور (الهوال) ، صفحة (٣٠) : (فالسخرية محاولة لطيفة مهذبة الغرض منها تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التي تجانب التطور وتناهض الحركة نحو المستقبل ، فإذا ما وقعت على إحدى هذه الظواهر كالبلادة أو الخمول أو الغفلة أو كل ما الحياة بالتوقف أو البطء ، أو كل ما تحس أن فيه إعراضا عن الحياة وعجزا من التلاؤم معها ، أخذت نفسها ضده ، وجمعت أسلحتها لتنقض عليه إذا لم يكن له بد من أن تكون قاسية معه) .

فهو موقف يقفه الإنسان الساخر ضد كل ما من شأنه أن ينحرف بالحياة عن مجراها الطبيعي ، وضد كل من يحاول أن يطمس ويزيل هذا التلاؤم أو الانسجام الكامل بين الإنسان والوجود ، أو هي محاولة لإعادة هذا الاتساق بين الإنسان و الوجود لتجميل جزئيات الحياة .

والسخرية تؤدي دورها من خلال عنصرين ، العنصر الأول : **الإنسان الساخر العنصر الثاني الشيء المسخور منه .**

أولا : الساخر : -

السخرية خاصية يتميز بها إنسان ذو مواصفات خاصة ، لأنها في حاجة إلى درجة من تيقظ الوعي ؛لتدرك الانحراف الحادث في المسخور منه ، والصورة التي كان يجب أن يكون عليها ، وهذا في حاجة إلى نصاعة الإدراك وشفافية الحدس يقول الدكتور الحوال : **(لهذا فإن السخرية عمل إنساني محض ، لا يستطيعه إلاّ الإنسان لأنها توأم الضحك وإن لم تبعث عليه إحيانا** ، ونستطيع أن نقول : **إن الإنسان حيوان ساخر لأن السخرية جماع النطق والضحك والعقل) .**

وحين يسخر الساخر يفعل هذا بدافع داخلي لأن هذا الفعل بمثابة تطهير له بمثابة غسل النفس مما من شأنه أن يعكر صفوها ، أو يقض مضجعها .

إن عملية السخرية تعطي للساخر شعورا بالراحة الكبرى ، بأنه فعل ما عليه وأدى واجبه ، وأن مهما حدث بعد ذلك لن يتحمل مغبته ، لأن ما قام به كان بمثابة إن إنذار وتحذير ، يقول الدكتور (الحوال) في صفحة (٣٠) : **(وحين يسخر الإنسان فهو يستخدم مواهبه الأساسية للحفاظ على المجتمع ومناصرة الحياة ، ويلبي نداء عميقا أزليا في نفسه وفي كل حواسه ليبقى على كل ما هو جميل وصادق وبناء**

فإذا سخر من غفلة بعض الناس ، فإنه يعبر في نفس الوقت عن محبته لهم واهتمامه بأمرهم ، حتى لو اختلط الأمر أحيانا ، وغطت عليه سحابات عارضة وسطحية ، فلم يفهم على حقيقته ، إنه يريد أن ينبه الغافل ليتخلص من غفلته ويعود إلى رشده وانتباهه ، لأن هذا أولاً في صالحه ، ولأنه سبيله للتوافق مع النظام الاجتماعي والقانون الطبيعي للحياة الذي يستلزم الانتباه والتوتر ولا يقبل من الإنسان الغفلة والاسترخاء في كل وقت حتى لو احتاج إليهما أحيانا).

فالإنسان الساخر لا يفعل هذا من دافع كره أو من واقع نفس مظلمة ، لا ترى إلا الجانب المظلم أو القبيح من الحياة ، وإنما هي نفس محبة ، تريد أن تضع كل شيء في نصابه و في مكانه الصحيح ، حتى ينبت الجمال في كل مكان حولنا ، فهو يسخر من خلال شفقته وخوفه وحرصه على الآخرين ، وكما قلت في فصل (فلسفة المازني) إنه لم يكن من المتشائمين وإنما كان محبا للحياة عاشقا لها ، وهذا الحب هو الذي دفعه لكي يطهر الحياة على أكمل وأتم صورة ، أراد أن يرى الوجود بدون نقص ، خاليا من كل قبح ، يريد وجودًا ساميًا ، لوم يبدأ بذلك بأن يقتص من الناس لنفسه ، بل اقتص للناس من نفسه أولا وبدأ بعيوبه هو ، ودارت سخريته حوله ، وفي نفس الوقت الذي كان يسخر فيه من نفسه ، كانت سخريته من الآخرين ، لأنه جزء منهم ، ولأنه إنسان رمز لكل إنسان في أي مكان ، يقول الدكتور (محمد مندور) في كتابه (تجارب في الأدب والنقد) ، صفحة (٤٨) : (فروح المازني الساخرة تطبع كتاباته بطابع لا يمكن أن تخطئه بين مئات الكتاب ، هي نوع فريد من السخرية ، لا يبعث على الشفاه ابتسامة التشفي المتعالية بل ابتسامة الزهو والاشفاق التي لا تلبث أن تمتزج بمرارة الحكمة نفسها ، وذلك لأن المازني يدير

سخريته دائما حول نفسه ، حول عيوبه هو ، ولكنك لا تلبث أن ترى هذه العيوب مرتبطة أشد الارتباط بعيوب الآخرين ، بل بعيبك أنت ، فأنت تبتسم أولا ومشفقا عليه ، وراضيا عن نفسك وتبتسم أخيرًا ، وقد رأيت هذه النفس التي كنت راضيا عنها ، وعرفت أنها نفس مليئة بالعيوب ، ولكن العيوب ليست فيك وحدك بل في الناس جميعا قليلة أو كثيرة ، أن سخرية المازني لا تجعلنا نضحك من عيوب الناس بل تمدنا بالشجاعة على مواجهة عيوب أنفسنا) .

والساخر إنسان متمرد ثوري لا يرضى عن وضع فاسد ، بل يحترق شوقا إلى تغييره ؛ لأن فطرته سوية صالحة ، فهو لا يستريح إلاَّ إلى الصالح . ولا يستطيع أن يستكين على وضع خطأ أو وضع فاسد ، فيأخذ على عاتقه تغييره ، ولكن بلا عنف وإنما في أسلوب حضاري مهذب ، لا يترك رواسب في النفس من كره أو حقد أو انتقام ، يردي أن يقوم بثورته ولكن بدون أن يكون هناك ضحايا ، إنه انتصار للمجتمع الذي يوجد فيه إنسان بتلك النوعية ، وانتصار للإنسان الساخر ، لأنه استطاع أن يكون عضوًا نافعا للمجتمع ن فهو رقيب وحارس على القيم من أن تتبدل أو تنقلب ، انتصار له لأن اهتمامه تعدى منطقة ذاته إلى ذوات الآخرين وأصبحت مشاكل الآخرين تشغله ليل نهار ، ولم يجد من سبيل لحل تلك المشاكل إلا الدخول معهم في معركة السخرية ، يقول الدكتور (مندور) : (وهذا النوع من السخرية لا يمكن أن يكون حيلة أدبية فقط بل هو قبل ذلك ثمرة جهاد طويل هو نوع من البطولة ، معناه أن المازني الشاعر الذي كان اسيرًا في نطاق ذاته قد حطم هذا النطاق ، وخرج يكلمنا كلام إنسان لإنسان ، كلام إنسان لم يعد يؤمن بأن كل ما في هذه الدنيا فاسد – بما في هذا الإيمان من اعتقاد ضمني مخادع بأنه

وحده الصالح – بل تعلم أن يقبل الدنيا كما هي ، لأنه تعلم أن يقبل نفسه كما هي ، لهذا نجد المازني دائما قريبا إلى نفوسنا كصديق حميم ، ونجد تشاؤمه – إن كان ما وصفناه تشاؤما – داعية إلى التفاؤل وتنمحي عنده المتناقضات كما لا تنمحي إلاّ عند كاتب عبقري) .

إن مواصفات الإنسان الساخر قلما تتوافر في إنسان ، لأنه يصبح قيمة في حد ذاته ، عندما الصواب ليعضد ، ويلتقي الخطأ ليقوم ، وقد عرض المازني الكثير من الأوضاع الإنسانية التي رأى أنها في حاجة إلى إصلاح وتقويم ، وأهم ما عرضه ورأى أنه في حاجة ماسة إلى إصلاح وتقويم هو وجود الإنسان .

ثانيا : المسخور منه :

هناك أشياء كثيرة في حياتنا من الصعب التخلص منها بقانون من القوانين ووجودها بوضعها الذي عليه قد يعرقل مسيرة الحياة ، أو ينتقص من إحساس الإنسان بوجوده ، مثل العادات والتقاليد والمعتقدات البالية التي عفى الزمن عليها ولم تعد صالحة لعدم موافقتها والزمن الحاضر... فحينما يواجه الإنسان مثل تلك الأشياء ، لابد أن يتعامل معها بحرص وحذر ، لأنها تمس وجدان الناس ، وتستمد شرعيتها من خلال هذا الكم الهائل من الذين يمارسونها ، هنا تظهر سخرية المازني لتؤدي دورها ، لأن إذا استهدفت السخرية الهجوم على ما يبجله الناس ويحترمونه من عادات وتقاليد وأعراف ، فإن عملها هذا لا يترك في النفوس شيئا من العناد أو الإصرار على التمسك بالشيء الخطأ أو الذي لا يستند على عقل أومنطق ، بعدما ظهر لهم الخطأ في التمسك به ، فهي لا تفضح المسخور منه جهرًا ، أو بصورة صريحة أو بأسلوب فج ، حتى لا تاخذه العزة بالإثم ، وإنما تترك له متسعا من الوقت

وفرصة كبيرة ليعيد حساباته ويحاول تقويم نفسه ، بدون أن تمس كرامته ، يقول الدكتور (الهوال) : (إن الألوان الأخرى من العقاب قد تثير أحقادا وضغائن وتخلف رواسب ترزح تحتها الحياة زمنا طويلا ، وتحملها من العناء فوق ما تحملها إياه بعض المتناقضات التي أشرنا إليها . بينما لديها هذا اللون من العقاب الذي قد لا يقل صرامة عن الألوان الخرى بل ربما زاد عنها تأثير أو فعالية ، دون أن يترك في معظم الحالات على الأقل أي آثار هدامة ، وإذا ترك فإنما يترك حركة عامة يتأثر بها الفكر ، والفن والأخلاق ويشغل بها المجتمع فتزيده ثراءً روحيًا كبيرًا).

وقد لا يستطيع الكاتب أن يتوجه بالنقد الصريح إلى السلطات التي تبطش بمن تسول له نفسه أن يتناولها بالنقد ، فتلك السلطة منحرفة عن الجادة ، وفاسدة وفي حاجة إلى أن يظهرها الكاتب في تلك الصورة ، وان يخلع من فوقها سرابيل الزيف حتى تظهر للناس على حقيقتها ، كي لا يلتبس الحق بالباطل ، يريد أن يفعل هذا ولكن بدون أن يعرض نفسه للعقاب ، فلا يسعفه في تلك المهمة الخطيرة غير السخرية ، والتاريخ – وبالأخص المصري – حافل بتلك المعارك والمواقف التي كان يلجأ فيها الشعب إلى سلاح السخرية حينما يكون هناك سلطة متجبرة تبطش بكل ما يعتز به الشعب وتنقض على حريته وكرامته ، هنا نجد الشعب يلجأ إلى السخرية يتخذها سلاحا ليحارب به ويدافع بها عن نفسه ، وليقول كلمته كلمة الحق ضد الضلال والظلم بدون أن يعرض نفسه لبطش السلطة الغاشمة أو الحاكم الظالم ، يقول د/ (الهوال) : (وقد تكون العيوب التي تثير التهكم والسخرية خطيرة ولكنها في حماية السلطات ، ومن بيدهم الأمر ، وقد يعرض نقدها إلى عقاب ولكن من الخطر الكبير أن تترك هكذا دون مقاومة حتى تكون لها

السيادة والكلمة العليا على المجتمع ، فلابد من مقاومتها والوقوف ضد تيارها والتضيق عليها حتى تسقط في النهاية) .

فهي – السخرية – سلاح المغلوب على أمره ضد الظالم أو المستبد الذي يبطش بكل من يقترب منه ناقداً أو مقوماً ، وأيضاً ضد العادات والتقاليد والمعتقدات التي لا تستطيع أن ننقدها نقداً سافراً ، وقد وجه المازني سلاحه إلى كل تلك الأشياء وإلى الطمع والتكبر والغرور ، وأعطى لكل شيء حجمه الصحيح والطبيعي حتى يكون وجود الإنسان وجوداً حقاً يستند على أسس سليمة ، وليس على أساس واهي في الضعف .

obeikandl.com